

الى اجابات المدنية

بعد أن دخل نوع الانسان في طور جديد من حياته المدنية ، ومعيشته الاجتماعية أصبح على كل فرد من أفرادها واجبات نحو وطنه وحكومته ما كان مكلفاً بها بل ربما لم يكن يشعرُ بها مذكّان في طور البداوة وسباجة المعيشة . وقد سُمّيت هذه الواجبات (الواجبات المدنية) . ويقتصر الكلام فيها على أمرين أساسيين : (١) وطن يجب حبه والدفاع عنه (٢) حكومة يجب طاعتها والنصح لها . ومن ثمّ كانت مباحث هذا الباب ثلاثة :

(١) الحكومة والوطن . (٢) النصح والطاعة . (٣) الحرب والدفاع

الحكومة والوطن

وَطَنُ الرَّجُلِ الْبَلَدُ الَّذِي نَشَأَ فِيهِ ، وَقَضَىٰ مَعْظَمَ أَيَّامِ حَيَاتِهِ فِي رُبُوعِهِ بِحَيْثُ يَتَمَيَّزُ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْبِلَادِ بِنَسَبِهِ إِلَيْهِ فَيَقَالُ : دِمَشْقِي مِثْلًا أَوْ لَا بَغْدَادِي وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ مَدْلُولُ كَامَةِ (الْوَطْنِ) فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَفِي اسْتِعْمَالِ كُتُبِهَا وَشُعْرَائِهَا الْمُتَقَدِّمِينَ وَعَلَيْهِ قَوْلُ أَحَدِهِمْ :

(وَحَبَّبَ أَوْطَانُ الرِّجَالِ إِلَيْهِمْ مَا رَبُّ قَضَائِهَا الشَّبَابُ هُنَا لِكَا)
وَحَبُّ الْإِنْسَانِ لِهَذَا الْوَطَنِ وَحِينُهُ إِلَيْهِ شُعُورٌ طَبِيعِيٌّ فِيهِ . فَلَا مَعْنَى لَعْدَهُ مِنْ (الْوَاجِبَاتِ) عَلَيْهِ . وَقَوْلُهُمْ (حُبُّ الْوَطَنِ مِنَ الْإِيمَانِ) وَإِنْ لَمْ يَثْبُتْ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حَدِيثًا بَلْفُظِهِ فَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ بِمَعْنَاهُ أَوْ بِمَا هُوَ أَقْوَى مِنَ الْمَعْنَى : ذَلِكَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ أَنْ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ كَانَ إِذَا ذُكِرَتْ (مَكَّة) مَوْلَدُهُ وَمَنْشَأُهُ تَغْرُورِقُ عَيْنَاهُ الْكَرِيمَتَانِ بِاللَّدْمِوعِ حَنَانًا لَمَكَّةَ ، وَتَشْوُقًا إِلَيْهَا

ثم حدث في هذه الأزمنة المتأخرة وعلى ألسنة كتّاب العرب وشعرائهم معنى جديد لكلمة (الوطن) غير المنشأ والمولد . فأصبح يُراد به البلاد التي تتميز عن غيرها بمحدودها وحكومتها وقوانينها وتضامن سكانها والتفافهم حول جامعة واحدة وراية واحدة ومصالحة واحدة ، وإذا نسب الى هذا الوطن أحد قيل عنه إنه (وطني) أي لا أجنبي . وهذا المعنى هو الذي نريده في بحثنا هذا ، وإياه عنى الشاعر المصري بقوله :

(وما الوطنُ المحبوبُ إلاَّ يتيمةٌ وباقي المعالي كالذراري التوائيم)
والوطنيون من متمدني هذه الأيام إذا أرادوا أن يتمجدوا أو يتغنوا
بذكرى أوطانهم لا يقتصرون منها على ذكر الثروة والسكان والحكومة التي
هي المقومات الأصلية للوطن بل يريدون ما يشمل أيضاً مفاخر وطنهم التاريخية
وأخبار حروبه وانتصاراته وسير أبطاله ومشاهير رجاله وما أبقي هؤلاء من
الأثار والمباني والمؤلفات والاختراعات . ويدخل في ذلك أيضاً شرائع البلاد
وعاداتها وتقاليدها ، واللغة وأمثالها وأناشيدها ، وما في البلاد من مناظر وجبال
وأثمار وحيوان ونبات مما لا وجود له في الأوطان الأخرى ، أو مما يمثله الخيال
أنه أفضل وأمجد مما عند الأمم الأخرى . ويتخذ كل وطني من مجموع ذلك
صورة في ذهنه يميز بها وطنه عن غيره ، ويرمز الى ذلك المجموع بقطعة من
النسيج تسمى (الراية) فتدل على الوطن دلالة اللفظ على المعنى . أو الاسم على
المسمى : بحيث إذا أكرمت الراية كان ذلك اكراماً للوطن نفسه وإذا أهينت
كانت الإهانة كأنها موجهة الى الوطن نفسه . وإذا قالوا : إن فلانا يحب وطنه
يريدون شغفه بمجموع ما ذكرنا . ويعتدون هذا الحب من أكبر الواجبات
وأعظم الفضائل ، ويرَوون عن (أرسطو) أنه قال : « الرجل ليس رجلاً بلا
وطن » وقال بعض عظماء أوروبا « من لم يقيم بأداء واجبه نحو وطنه خوفاً من

الموت ليس بأهل لأن يعيش : لأن الموت لا بد منه ولكن النفس الشريفة لا تموت . وإن الأمم لتمايز وتتفاضل في الارتقاء المدني والاجتماعي والسياسي بمقدار ما لدى أفرادها من حب القيام بهذا الواجب : (واجب حب الوطن) . وبقدر ما يكون لهم من الآثار في خدمة أوطانهم ، ورفع منارها . على اننا مهما جعلنا الوطن كناية عن مجموع ما ذكرنا فإن (الحكومة) هي الجزء الأهم في ذلك المجموع ، وإن نسبتها الى الوطن نسبة القطب الى الرحي : فإذا كان القطب متيناً دارت الرحي على نفسها بقوة ومتانة ، وأدّت وظيفتها بضبط وإحكام ، وبالعكس اذا كان القطب متخلخلاً وإهياً : فإن الرحي إذا ذاك تفسد حركتها ، وتعجز عن القيام بوظيفتها ، فحب (الحكومة) إذن واجب كحب (الوطن) ولم يحب (وطنه) من لم يحب (حكومته) ويُمحض النصح والطاعة لها كما سيأتي بيانه في بابها الخاص .

وهذا الخلق أو الواجب المدني أعني (حب الوطن) و (طاعة الحكومة) وإن لم يرد في النصوص الإسلامية بهذا التعبير نفسه لكنه ورد بما يفيد ويتفق معه في المعنى والغرض فإذا جاء في النص ذكر (الإمام) أو (الخليفة) أو (الوالي) أو (ولي الأمر) فهو ما نريد اليوم بكلمات (الحكومة) أو (الدولة) أو (مجلس الأمة) . وإذا قال النص (مصلحة المسلمين) أو (أمور الأمة) فهو ما نريد به اليوم (الوطن) و (البلاد)

وقد قرر الإسلام في جملة ما قرر من الأصول أنه لا بد من قيام (حكومة) أي سلطة عادلة في الأمة تسوس مصالحها وتدبر شؤونها ، وتقيم منار العدل فيها ، وجعل ذلك فرضاً دينياً ، وتشاء من كل بلد ليس فيه حكومة ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إِذَا مَرَرْتَ بِلَدٍ لَيْسَ فِيهِ سُلْطَانٌ فَلَا تَدْخُلْهُ : إِنَّمَا السُّلْطَانُ ظِلُّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ﴾

والمراد بالسُّلْطَان السُّلْطَة وقوَّة الحُكْم التي تحفظ الأمن ، وتحمجز بين الناس ، وظلُّ الله رحمته ومعوته : فكما أن الحرَّ أن إذا ضيق الحرُّ أنفاسه لجأ إلى الظلِّ فوجد فيه الراحة والهناء كذلك المظلوم والضعيف يلجأ إلى سلطنة الحكومة العادلة فيجد لديها النصرة والمعونة . ومثل ذلك تشاؤم الشارع من القوم الذين أمرهم فوضى وليس فيهم زعيم يرجعون إليه عند الاختلاف . فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ ﴾

وبقدر ما أوصى الشارع بلزوم الطاعة لولاية الأمور أوصى هؤلاء بلزوم العدل والرفق في الرعيَّة . من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أَحْسِنُوا إِذَا وَلَّيْتُمْ ﴾

﴿ كُلُّ رَايٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ﴾

﴿ أَيُّمَا رَجُلٍ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا عَلَى عَشْرَةٍ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ فِي الْعَشْرَةِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ فَقَدْ غَشَّ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَجَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

﴿ أَيُّمَا وَالٍ وَلِيَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي فَلَمْ يَنْصَحْ لَهُمْ وَيَجْتَهِدْ لَهُمْ كَنْصِيحَتِهِ وَجَهْدِهِ لِنَفْسِهِ كَبَّهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ ﴾

﴿ أَوْصِي الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي بِتَقْوَى اللَّهِ وَبِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ : أَنْ يُعَظَّمَ كِبَارُهُمْ . وَبِرَحْمَةِ صَغِيرِهِمْ . وَبِوَقَرِ عَالِمِهِمْ . وَأَنْ لَا يُضْرَبَ بِهِمْ فَيْدٌ لَهُمْ . وَلَا يُوحِشَهُمْ فَيَكْفُرَهُمْ . وَأَنْ لَا يُغْلَقَ بَابُهُ دُونَهُمْ . فَيَأْكُلَ قُوَّيُهُمْ ضَعِيفَهُمْ ﴾

علل الشارع نهيه عن ضرب أبناء الأمة بأن فيه إذلالاً لهم ، ولا خير أو

لَا مَنْفَعَةَ فِي أُمَّةٍ يَكُونُ أَبْنَاؤُهَا الَّذِينَ هُمْ مُحَاتِمَا أَذِلَّةً صَغَارَ النُّفُوسِ ، وَقَوْلُهُ
(فَلَا يُوحِشُهُمْ فَيَكْفُرُهُمْ) لَعَلَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْحَاكِمِ أَنْ يِعَامَلَ مُحْكُومِيهِ
بِالْجَفَاءِ وَالْعِلَاطَةِ فَيَسْتَوْحِشُوا مِنْهُ ، ثُمَّ يَحْقِدُوا عَلَيْهِ ، وَيُنْكِرُوا كُلَّ جَمِيلٍ كَانَ أَسَدَاهُ
إِلَيْهِمْ ، فَيَكُونُ الْكُفْرُ هُنَا بِمَعْنَى كُفْرِ النِّعْمَةِ . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ :

﴿ لَسْتُ أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي غَوَاةً تَقْتُلُهُمْ ، وَلَا عَدُوًّا يَجْتَنِحُهُمْ . وَلَكِنِّي
أَخَافُ عَلَيْهِمْ أُمَّةً مُضِلِّينَ : إِنْ أَطَاعُوهُمْ فَتَنُّوهُمْ وَإِنْ عَصَوْهُمْ قَتَلُوهُمْ ﴾

وَصَفَّ الشَّارِعُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْوَلَاةَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَسْلُكُونَ بِالنَّاسِ
مَسَالِكَ الضَّلَالِ وَالْغَيِّ . فَإِنْ اتَّقَادُوا لَهُمْ أوردوهم مواردَ الْهَلَاكَةِ ، وَإِنْ
شَمَسُوا لَهُمْ ، وَأَبَوْا مُتَابَعَتَهُمْ ، أَعْمَلُوا فِيهِمْ السَّيْفَ وَأَفْنَوْهُمْ .

وَمَا خَشِيَهُ الشَّارِعُ عَلَى أُمَّتِهِ هُوَ الْإِسْتِبْدَادُ الَّذِي قَامَ أَبْنَاءُ الْعَصُورِ
الْآخِرَةِ يُطَارِدُونَهُ ، وَيَكْفُونَ عَنِ الْبَشَرِ عَادِيَتَهُ حَتَّى نَجَحُوا مَعْظَمَ النِّجَاحِ .

وَمِمَّا حَذَّرَ الشَّارِعَ الْحُكَّامَ مِنْهُ التَّبْذِيرُ فِي أَمْوَالِ الْأُمَّةِ وَالِاسْتِثَارَ بِشَيْءٍ
مِنْهَا . وَقَدْ رَوَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ النَّبِيَّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ - وَقَدْ أَهْوَى بِيَدِهِ الشَّرِيفَةَ إِلَى وَبَرَةٍ مِنْ
جَنْبِ بَعِيرٍ - :

﴿ مَا أَنَا بِأَحَقَّ بِهَذِهِ الْوَبَرَةِ مِنْ رَجُلٍ مِنْكُمْ ﴾

الْبَعِيرُ مِنْ إِبْلِ الصَّدَقَةِ الَّتِي هِيَ مَالُ الْأُمَّةِ : فَالشَّارِعُ يَقُولُ بَعْدَ أَنْ تَنَاقَلَ
وَبَرَةً نَتَفَّهًا مِنْ جَنْبِ ذَلِكَ الْبَعِيرِ : إِنَّهُ لَأَحَقُّ لَهَا بِهَا دُونَهُمْ . يَعْنِي فَكَيْفَ بِمَا
فَوْقَهَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَخَيْرَاتِ بِلَادِهِمْ ؟

وَحَذَّرَ الشَّارِعَ أَيْضًا الْوَلَاةَ مِنَ الْإِسْتِغَالِ بِالتَّجَارَةِ وَمُضَايَقَةِ التَّجَارِ فَقَالَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ :

﴿ مِنْ أَخْوَانِ الْخِيَانَةِ تِجَارَةُ الْوَالِي فِي رَعِيَّتِهِ ﴾

وذلك بأن يُتاجر بالبضائع في أسواقهم ويزاحمهم في متاجرهم ، ومعاملات مصارفهم . فتُحجز عنهم الأرباح ثم تنهال عليه بقوة الرهبة منه أو التزلف إليه . وهذه الأرباح التي دخلت جيبه هي حقهم لو عفا وتركا لهم واهتم بأمر وظيفته ، فهو بذلك كأنه قد خانهم . ويحتمل أن يكون المراد بقوله (تجارة الوالي في رعيته) أن يعقد الوالي مع حكومات أخرى عقوداً سياسية أو اقتصادية ضارة بمصالح رعيته أو باستقلال بلاده لقاء منفعة ينالها هو من تلك الحكومات فيكون بذلك قد جعل رعيته سلعةً تاجر بها ، وجرّ الربح لنفسه على حسابها ، وكفى بهذا خيانةً . والحاصل أن الإسلام لا يرضى للبشر حكومة يسلك رؤساؤها في معاملتها مسلك الحيف والاستبداد والأثرة : فهو يكاف هؤلاء الرؤساء إقامة الحق والعدل وأن لا يكون لواحدٍ منهم ولا لأىٍّ كان من عظماء الأمة وأقويائها ميزة أو خصوصية على واحدٍ من الرعية . وصرّح الإسلام بأن كل أمة لا يكون هذا شأنها أو لا يكون فيها حكومة عادلة تنصر الضعيف وتحميه من صولة القوي فهي أمة يصح أن يقال فيها ما قاله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ كَيْفَ يَقْدَسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يَأْخُذُ ضَعْفُهَا حَقَّهُ مِنْ قَوِيَّهَا وَهُوَ غَيْرُ

مُتَعَمِّعٍ ﴾

(كيف يقدّس) أى لا يقدّسها ولا يطهرها ولا يكرمها بل تكون قدرة تجتنب شعوب الأرض معاملتها والاختلاط بها ، أو يطأونها بأقدامهم ، ويُنزلونها في آخر الأمر على أحكامهم . وقوله : (غير مُتَعَمِّع) أي غير متردد ولا متعرج ولا خائف . والإسلام لم ينس أن يخوف الحكام ، ويحذرهم عاقبة البغي والاستبداد بأممهم ، وأن ذلك مما يحمل الأمم على ثلّ عروشهم . وتقليم

أظفارهم . فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم :
﴿ وَيَلْ لِلْوَالِي مِنَ الرَّعِيَّةِ إِلَّا وَالِيًا يَحُوطُهُمْ مِنْ وَرَائِهِمْ بِالنَّصِيحَةِ ﴾
أي ليحذر الوُلاة رعاياهم أن يشوروا عليهم إلا الناصح الساهر على
خير رعيته فإنَّ هذا في أمنٍ من حقدِها وانتقامِها . وهذا الحديثُ في التحذير
من الثورات السياسية كحديث (وَيَلْ لِلْأَغْنِيَاءِ مِنَ الْفُقَرَاءِ) في التحذير من
الثورات الاجتماعية والمؤامرات الاشتراكية . وقد مرَّ في بابه .
ومَّا نصَّح به الشارع للأُم أن تهتني بأمر التربية والتعليم ونشرهما بين
أبنائها . وبذلك تستعدُّ لأن ينبغ فيها أمراء وحُكَّام قادرون على سياستها ،
وضبط أمورِها . إذ أن الأمة المتعلِّمة ذات التربية الفاضلة هي التي يوجد من
أبنائها حُكَّام متعلِّمون ، ووُلاة صالحون . أمَّا الأمة الجاهلة المنحطة في تربيتها
وأخلاقها فيكون الحُكَّام من أبنائها مثلها منحطِّين خاملين ، وعن طريق الحق
والخير ناكبين . ولعلَّ ما قلناه هو تفسير ما وردَ في الحديث الشريف وهو
قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ كَيْفَمَا تَكُونُوا (١) يُؤَلَّى عَلَيْكُمْ ﴾

فكونوا أيها الوطنيون متعلِّمين مُهتدين يكن حُكَّامكم كذلك . وكونوا
جهلاء أغنياء مُمخترقين يكن حُكَّامكم كذلك فانظروا في نفسكم قبلَ نظركم فيهم
وحكمكم عليهم . وقد قال بعض علماء الاجتماع المعاصرين وكأنه في قوله هذا
يفسِّر لنا معنى الحديث المذكور :

« ليست الهيئة الحاكمة عادةً بأحسن حالاً من الهيئة المحكومة ولا يكون
الحُكَّام ذوي عدلٍ وشرف مالم يكن السَّوادُ الأعظم من الأمة حرَّ الضمير
سليم الأخلاق كريم العواطف »

(١) حذف نون الفعل لغير جازم تخفيفاً وقد مرَّ شبيهه ومن النحاة من يجعل كيفما

جازمة للفعل

النصح والطاعة

قلنا إنّ الحكومة هي عماد الوطن وملجأه وقطب رحاه . وبديهي أنّ قوة الحكومة نفسها إنما هي مستمدة من قوة الوطن والشعب الذي يستوطنه : فإذا خذّل الشعبُ حكومته ، وعصى أمرها سلّبت قوتها وأصبحت عاجزة عن ضبط الأمن وإقامة العدل ، وتمشية المصالح ، وآل أمر الأمة والوطن أخيراً إلى الفوضى والدمار . وإنّ الخروج على الحكومة لا يضرّ الحكومة بقدر ما يضرّ الوطن نفسه . فسلامة الوطن إذاً متوقّفة على تبادل الثقة بين الحاكم والمحكوم وتضامن الفريقين على حماية الوطن . والدود عن حياضه . والحرص على توفير مصالحه .

وقد راعى الدين الاسلاميُّ كلّ هذا وامتلات نصوصه بحضّ الأمراء والحكام على العدل في المحكومين ، والرفق بهم ، والسهر على مصالحهم ، وترك الأثرة والاستبداد فيهم ، كما سمعت في البحث السابق . ونريد هنا أن نذكر بعض ما ورد بشأن طاعة الأمة نفسها لأمرائها ، وولاية أمورها . وأشهر النصوص الدينية في ذاك قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾

والمراد بإطاعة الله والرسول إطاعة أوامرها : فكأنّ الآية تقول . أطيعوا الشرائع السماوية وأطيعوا الحكومة التي تنفّذ تلك الشرائع . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتَعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَانَ رَأْسَهُ زِينَةً ﴾

قوله (استعمل عليكم) أي جعل عاملاً وحاكماً عليكم . والمراد أن سَخَنَةَ
الحاكم وهيأته ونجاره ونسبته لا علاقة لها بصحة توليته ، ولا بوجوب الخضوع
له . وإنما مدار الخضوع على أهليته وكفايته . وقال أيضاً :

﴿ عَلَيْكَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ
وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ ﴾

قوله (منشطك ومكرهك) قريبٌ في معناه من قوله قبله (عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ)
وقوله (أَثَرَةٍ عَلَيْكَ) أي أن يؤثر الحاكم نفسه ويفضأها عليك ببعض المنافع
والفوائد . ينهى الشرعُ الإسلاميَّ الحُكَمَاءَ عن الأثرة . كما سمعت في حديث
(الوَبَرَةِ) التي تناولها الشارع صلى الله عليه وآله وسلم من جنب البعير وقال :
« ما أنا بأحقَّ بهذه الوَبَرَةِ من رجلٍ منكم » فإذا كان صاحب الشريعة لم
يجوز لنفسه الاستئثار على الأمة بهذا القدر التافه من حطام الدنيا فكيف يجوز
ذلك لغيره ؟

وإذا أثر الحاكم نفسه وتلاعب بمصالح الأمة وجب نصحه والأخذ
بمحجزته عن التمادي في عمله . فإذا لم يتيسر للأمة ذلك فلا سلام يأمر بالصبر
عليه . ويحذر من نبد طاعته لأحبا بسواد عينيه ، ولا رضا بمخالفته لأوامر الله
ورسوله . ولا إرادة أن تكون الأمة ذليلةً حقيرةً . كيف والإسلام يجعل لها
كل الحق في العزة والأئفة ؟ إنما ذلك خشية النزاع وتفرق الكلمة ، وضياع
الوطن بجملته . وإنَّ مُعْظَمَ ما مُنِيَ به المُسْلِمُونَ من التنازع والتفرق في سالف
أحقابهم كان السبب فيه أثره أمرائهم . وسوء ملكة حكامهم . فيتخذ ذلك بعض
منافسهم ذريعةً إلى القيام عليهم ، وأخذ السُّلْطَةِ من أيديهم . هذه الحالة أضرت
بالمسلمين ، وأوهنت جامعتهم ، وبددت شملهم إلى حدٍّ هال أمره المتأخرين
من ققهاثنا (رضى الله عنهم) . فالزموا الناس بالطاعة لأمرائهم إلزاماً لا هَوَادَةً

فيه حتى قال قائلهم في منظومته الفقهية :

(وطاعة من إليه الأمر فالزم وإن كانوا بُغاة فاجرينا)
(وإن كفرُوا ككُفْرِ بنى عُبيدٍ فلا تسكن ديار الكافرينا)

وقد أراد بنى عُبيدٍ : العبيديين وهم الفاطميون ملوك مصر ، يقول : هاجروا من بلادهم ، ولا تمزق من طاعتهم ، بحجة أنهم كفرون . لكن كل هذا منظور فيه الى الحالة الاجتماعية في القرون الوسطى وقت أن كان يصير على الأمم توحيد كلمتهم وتنظيم حملتهم ضدّ أمرائهم الجائرين . وذلك لما كان ينتصهم من تعميم التربية والتعليم بينهم وتنظيم قوات الدفاع والمقاومة ، وتوفير أسباب المواصلات والمناقلات ، ونشر الأفكار والأخبار وتكوين رأى عامٍّ فعّال . أما في هذه الأزمنة المتأخرة فالعلم عمّ الكفّة حتى أنّ المرشح للامارة وأعوانه لابدّ أن يكون بأيديهم شهادات مدرسية تُثبت كفايتهم وحسن أخلاقهم . والكهربائية والبخار تكفلاً بنقل الاخبار وجمع أبناء الأمة في صعيد واحد في زمن واحد للاستشارة والمؤامرة . وقوّات الدفاع والصّولة من مال وجند وأدوات حرب ووسائل نقل وتموين أُفرغت كلّها في قالب من النظام مُحكم الصنّع والتدوير بحيث تدار كما تدار آلات الساعة . ووراء هذا كلّه محافل الخطابة والصحافة التي تمحص الحقائق وتوحد الكلمة ، وتجمع ما تفرّق من الآراء . فلم يبق عذرٌ لأبناء الأمم اليوم في السكوت إذا رأوا من حُكْمهم جوراً أو أثرةً وإنما عليهم أن ينتفعوا بمجموع ما لديهم من الوسائل والقوى التي وهبتهم إياها العناية الإلهية فيستخدموها في مقاومة الظالم ، وكفّ أذاه عنهم ، وما كان لهم أن يهجرُوا أوطانهم ، ويدعَوْها للظالمين ، اللهم إلا بنية العود إليهم ، والكرة عليهم . ولنعد الى ما كنّا بصدّده فنقول :

إنّ الإسلام وإن أمرَ بالطاعة ذوي الأثرة كما في الحديث السابق لكنّه

من جهةٍ ثانيةٍ أمر بلزوم النصيح لهم وإعلانهم أن طاعتهم إنما تجب على الأمة فيما كان حقاً وعدلاً . وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك :

﴿ السَّمْعُ والطَّاعَةُ حَقٌّ عَلَى الْمَرْءِ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ ﴾

وقد أوضحنا أن السمع والطاعة للظُلُم من الحُكَّام كان أمراً لازماً في القرون الخوالي خشية التعرّض لصولتهم وبطشهم . أمّا اليوم فإن الحكومات المتمدّنة ورؤسائها فسحوا مجالاً أمام أبناء الأمة . وسهلوا عليهم طرق انتقاد العمّال الظالمين أو الخائنين . وأعظم تلك الطرق (مجالس النواب) و (صحف الأخبار) فهما الكفيلان بالتّقيب عن أولئك العمّال الظالمين وهتك أسرارهم والكشف عن عوارهم ^(١) . وجاء في الحديث الآخر قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ ﴾

أي إنّ الطاعة للحُكَّام إنما تكون فيما هو حقٌّ مانوس بين الناس . لا فيما كان باطلاً مستنكراً غريباً عن شرائعهم وتقاليدهم ومواضعات اجتماعهم واعلم أن هذا الفصل من كتابنا معقود للحضّ على الطاعة لولاة الامور من حيث أن ذلك واجب مدنيٌّ على كل واحدٍ من أبناء الأمة . وكذلك ما سنذكره من أحاديث الحضّ على النصيح : فأنما نعني النصيح لولاة الامور خاصة . أمّا الطاعة والنصح لغيرهم من الوالدين والاساتذة والايّوان والخلطاء فأنما هو واجب شخصيٌّ أو اجتماعي يُفهم استحبابه من مجموع فصول الكتاب السابقة التي شرحنا فيها ما يجب على الشخص من التأدب بأداب الشريعة . والتخلّق بمكارم الأخلاق . وقد ورد تخصيص الاخوان بالذكر في قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إِذَا اسْتَنْصَحَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَنْصَحْهُ ﴾
 ﴿ إِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ نَصْحًا فِي نَفْسِهِ فَلْيَذْكُرْهُ لَهُ ﴾
 ﴿ إِنْ أَحَدَكُمْ مِرَاةُ أَخِيهِ : فَإِذَا رَأَى بِهِ أَذًى فَلْيُمِطْهُ عَنْهُ ﴾
 (أذى) أي عيباً أو نقصاً فليزله عنه بالنصيحة والإرشاد والدلالة عليه
 كما تدلُّهُ المِرَاةُ على عيوبه الظاهرة

ثم إن قولنا : النصيحُ لولاية الأمور واجب - معناه أن ننصح لهم إذا
 بدرت منهم بادرةٌ سوءٍ أو شرٍّ أو ضررٍ بالأمة . ويحتمل أن يكون معناه أن ننصح
 في العمل ^(١) الذي يعهدون الينا به : فلا نَظْلَمُ فيه ولا نَغشَّ ولا نَسِيءُ الاستعمال
 وكل ما ورد من الأحاديث الشريفة في الحُض على النصيح لولاية الأمور يحتمل
 المعنيين المذكورين ، وكلاهما من أكبر الواجبات المدنية ، وأعظم الفضائل
 الاجتماعية : مثال ذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم عدد أموراً يرضاها الأمة
 وأمرأاً يكرها لها . فمن الأمور التي يرضاها لها ما نبه إليه بقوله :

﴿ وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ ﴾

أي أن تمحضوا النصيح له فيما إذا زاغ عن طريق الحق . أو أن تخلصوا في
 العمل الذي وكل أمر القيام به إليكم : فلا تخونوا أو تسيئوا فيه . ومثله قوله
 صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ السُّلْطَانُ ظِلُّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ : فَمَنْ غَشَّهُ ضَلَّ ، وَمَنْ نَصَحَهُ اهْتَدَى ﴾ .

نكرر القول بأن المراد بالسلطان في النصوص الدينية صاحب السلطة
 والحكم . فيدخل فيه ما يسمونه اليوم رجال الشرطة والدرك . وقال صلى الله
 عليه وآله وسلم :

(١) المراد بالعمل ما نسميه اليوم الوظيفة والمأمورية

﴿الدِّينُ النَّصِيحَةُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَتِهِمْ﴾

والمراد من النصيحة لله ولرسوله العمل بأوامرهما . و (أئمة المسلمين) هم أمراؤهم وملوكهم . (وعامتهم) سوادهم وجمهورهم . فالتزام الحق مع هؤلاء والإخلاص لهم كلهم هو الدين أي من أكبر أركان الدين . لكنه جعله نفس الدين زيادة في الحُضِّ والترغيب ، وقد قال عمر رضي الله عنه « لا خير فيكم ما لم تقولوا ولا خير في ما لم أسمع » دل هذا القول من عمر بأشد اختصار على أكبر قاعدة في الواجبات المدنية تجمع بين الحاكم والمحكوم فهو يقول إنه لا يكون فينا معشر الأئمة خير ما لم تكن فينا جراءة على مُصارحة الخليفة نفسه بالحق ، وتكليفه التمسك به إذا رأيناه زاعغ عنه . كما لا يكون هو نفسه فيه خير إذا عصانا ولم يدعن للذي أرشدناه إليه ، ودلائنا عليه . وهذا نهاية في حرية عمر وإنصافه من نفسه وإرشاده لولاية الأمور من بعده .

فالواجب إذاً أن يكون في الأمة طائفة تراقب المصالح العامة وترشد الحاكم إلى الحق فيها إذا زاغوا عنها ، أو قصروا في المحافظة عليها ، عملاً بقول عمر (رضي الله عنه) وبقوله تعالى :

وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿

ولم يدع الإسلام هؤلاء الدعاة إلى الخير الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر - من النصيح لهم بالرفق والاعتدال واستعمال الحكمة عند القيام بوظيفتهم مذ قال تعالى :

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾

والمراد من (سبيل الرب) هنا الحق والخير وكل ما يرضيه تعالى . ومما نبه إليه الشارع وحذر منه في شأن نصيحة الحاكم ورفع الصوت في نقد أعمالهم

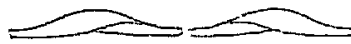
والكشف عن مساوئهم - أن يكون الغرضُ منه إرشادهم وتقويم اعوجاجهم وحملهم على الحق ، وخدمة المصالح العامة . لا أن يكون الغرض مجرد التشفّي والانتقام والتشهير . ولا جرُّ المغنم ، واحتيجان^(١) المناصب والرواتب . والآية في ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾

هؤلاء قوم كانوا يعيبونه صلى الله عليه وآله وسلم في توزيع أموال الصدقات بين المحتاجين إليها . وليس ثمة عيب في الحقيقة ، وإنما العائبون لم يُعطوا من تلك الأموال لنفاقهم أو لعدم احتياجهم : فلو أُعطوا لما عابوا ولما سخطوا . وفي معنى هذه الآية الحديث الشريف وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (وَعَدَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ رَجُلًا يُبَايِعُ إِمَامًا لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا فَإِنْ آعَظَاهُ مِنْهَا رَضِيَ . وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا سَخِطَ ﴾

هذا الرجل ما بايع وليّ الأمر ثم انتظر المال منه كاولئك اللّامزين المذكورين في الآية السابقة وإنما هو اشترط على ولي الأمر قبل الدخول في البيعة له أن يُعطيه مالاً أو منصباً فيعترف به اذ ذاك ويُنافح عنه . والاّ فإنه يكون حرباً له ، إلباً عليه . ومثلُ هذا جديرٌ أن لا ينظر الله اليه كما قال صلى الله عليه وآله وسلم



الحرب والدفاع

إذا كانت منزلة الوطن في نفوس أبناء الأمم المتمدنة ما ذكرنا في الفصل السابق وكان حبه والتباهي به من أسمى الفضائل ، وأكبر الواجبات فهل يكون من أثر ذلك الحب أن يُترك الوطن وشأنه . وتهمل أسباب وقايته والدفاع عنه فتتخطفه الأعداء من كل مكان ، ويذول اسمه ورسمه من مُصوّر البلدان ؟ . إذا كان حب الوطن فضيلة اجتماعية في الغرب ، فينبغي أن يكون فضيلة كذلك في الشرق . وإذا كان الدفاع عنه واجباً مدنياً في الشمال ، فيجدُر أن يكون واجباً مدنياً في الجنوب . لأن الفضائل والواجبات وسائر ضروب مكارم الاخلاق لا وطن لها . وإنما وطنها حيث يوجد الانسان ، وينشأ العمران . هذا الواجب المدني : (الحرب والدفاع) أتت به كل الشرائع ، وخضعت لناموسه جميع شعوب الأرض منذ وجدت الخليفة الى اليوم وإلى ما شاء الله ويقول بعض الأخلاقيين من علماء الاجتماع : إن الحرب آفة الإنسانية وإنها أثار من آثار انحطاط البشر في الأخلاق وانهم سوف يرتقون ويصلون إلى دور من عمرانهم يستغنون فيه عن الحرب والدفاع كما يستغنون عن الحكومات نفسها . ولكن متى يصلون الى هذا الدور ؟ ومعظم رجال السياسة اليوم مازالوا يرون وجوب العمل بما قاله أحد سلاطين الشرق وهو السلطان سليم (العثماني) « إذا أردت الصلاح والصلاح ، فكن مستعداً على الدوام للكفاح »

وقال بعض كتّاب أوروبا وهو (بول دومر) الفرنسي إذا سلمنا بأن الحرب ضربة هائلة على البشرية يجب أن نسلم أيضاً بأن هناك ضربات أشدّ هولا منها . ومن يُنكر أن الحرب هي مئة مرة أفضل من خسارة الاستقلال وفقدان الشرف الوطني ؟ اهـ »

الاسلام في دوره (١) عُلِّمَ بوجوب الحرب والدِّفاع وعَدَّة من أسمى الفضائل كما عَدَّتْه كذلك سائر الأمم المتمدَّنة. وقد حُضِّصَ على الاستعداد لها والصبر والاستبسال في خوض غمارها . وهو مع هذا يعلم ويرشد الى التروى في أمرها قبل اصطلاح حُرِّها . كما يُصرِّح بأن الحرب عَمَلٌ فظيع لا يُصار اليه إلاَّ عند الضرورة القصوى . قال صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح :

﴿ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ، وَإِذَا لَقِيتُمْهُمْ فَأَصْبِرُوا ﴾

فقوله (لا تتمنوا) يُشعر بأن الحرب وان كانت فضيلةً ليست مما يُتمنى بل مما يجتنب ما أمكن الاجتناب حتى اذا اضطرت الأمة اليها ، تدَّرَّعت بفضيلة الصبر عليها . وهذا كالعَمَلِية الجراحية في الجسد : نستعِذ الى الله منها . لكن اذا قضت الضرورة بها لسلامة الانسان كان واجبا صحيحاً ، وكان الصبر عليها فضيلة انسانية بلا خلاف

وعلماء الاسلام يذيعون هذا التعليم بين المسلمين ويقرِّرونه في دروسهم وقبل أن أقرأ الخبر الآتي في « العهد القديم » سمعته من بعض شيوخنا الصالحين يقرِّره في درس وعظه على ملاٍّ من المستمعين ، وهو أن النبي داود لما استأذن ربه في بناء هيكل اورشليم لم يأذن له في ذلك وإنما أذن لابنه سليمان : لان سليمان لم يلوِّث يده بدم الحروب ، أما داود فقد لوثها . فقال داود : ولكني حاربت بأمرك يارب . قال : بلى ، ولكنهم عبادي . فكان الوحي الالهي انما أمرَ بالحروب تخويفاً للبشر بحملهم بذلك على الحق والعدل وترك الشر والعدوان قلنا إنَّ الاسلام يعلم بأن الحرب ضرورة ، ومن قواعد الشريعة الكبرى

(١) هذا التعبير افرنجي وقد جرى عليه كتاب الدرب وألفته الاسماع فلا بأس من قبوله وتقليدهم فيه وان كان يمكن الاستغناء عنه في العربية بكلمة (في نوبته) مثلاً كما يستعملها بعضهم

أنَّ الضرورة تقدر بقدرها . وقد طبق الشارع هذه القاعدة على الحرب نفسها فنهى عن تمنيتها كما سمعت ثم حصرها في دائرة ضيقة من الشرائط والقيود : فهو لا يأذن أن تقع فيها خيانة ولا غدر . ولا أن تُقتل امرأة ولا طفل ولا هرم ولا عاجز ولا من كان ممثلاً للحرب كالنساء والعبيد والرهبان ، ولا أن يُقتل أسير ، ولا يُجهز على جريح ، ولا تُقطع أشجار ، ولا تُفسد زروع ، ولا تخرب دور ، ولا تُسمم مياه . الى غير ذلك من الآداب والوصايا التي فاضت بها كتب السنة الإسلامية . وقد أقر المنصفون من كتاب أوروبا بأن الإسلام حصَّ على هذه الآداب فقال الاستاذ (ريشيه) في بعض تأليفه « إن الاسبانين أخذوا عن العرب مدينة الحرب وتعلموا منهم الرفق في القتال وقت أن كانت قوانين العرب في الحروب أكثر مَدنية من قوانين الاوربيين »

ومما ينبغي التنبيه اليه أنَّ الإسلام في كثير من نصوصه التي يحضُّ فيها على الحرب يسميها باسم (الجهاد) والجهادُ والمجاهدة والاجتهاد كلها مشتقة من (الجهد) الذي معناه بذل الوسع في ممارسة الشيء أي شيء كان . غير أن كلمة (الجهاد) غلبت في لسان الشرع على بذل الوسع في ممارسة الحرب ، والصبر على أهوالها . وكان الغرض من إظهار الشرع لكلمة (الجهاد) تجنب اسم (الحرب) الصريح الكريه والعدول عنه الى ما هو أخفُّ وقعاً منه وهو كلمة (الجهاد) ولكن اقلب الوضع اليوم وصرنا نسمع الاوربيين يتشائمون جداً التشائم من هذه الكلمة ، وكأنهم يفهمون منها أن يقوم المسلمون فيقتلوا كل من خالفهم في الدين من دون قيدٍ ولا شرط ولا رحمة ولا شفقة ، وهذا المعنى ليس هو معناها في الواقع ونفس الأمر لا بحسب اللغة العربية كما سمعت ، ولا بحسب روح الديانة المطهرة الإسلامية ، لأن الجهاد الذي تأمر به ليس سوى

حرب مدنية محضة ضيقة الدائرة جداً لا تتجاوز فيها قدر الضرورة وحدود العدل - كما ذكرناه آنفاً - وكما شهده الاستاذ (ريفيه)
وإذا قال القرآن مثلاً:

﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾

وإذا قال صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً :

﴿ مَنْ لَقِيَ اللَّهَ بِغَيْرِ أَثَرٍ مِنْ جِهَادٍ لَقِيَ اللَّهَ فِيهِ ثَلَمَةٌ ﴾

﴿ أَقْرَبُ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

وأما ذلك من النصوص الدينية - لم يُرد الشارع بكلمة (الجهاد) فيها إلا ما تريده الأمم المتعدنة في قوانينها وبلاغاتها وعلى السنة كتابها وشعرائها من وجوب الثبات في الحرب ، والدفاع عن الوطن ، بكل ما في بدن الوطني من قوة وجلادة ، وبكل ما في نفسه من حمية وحماسة ضمن الدائرة الضيقة التي رسمها فن حقوق الدول ، وهو يلتحم مع مرسومته الشريعة الغراء من هذا القبيل .

والذي جعل أوروبا تتشاءم من كلمة (الجهاد) إلى هذا الحد حدث حروب في التاريخ الإسلامي كان بعض المسلمين فيها لا يتقنون عند حدود الشريعة المطهرة ولا ضمن دائرة العدل والرحمة التي رسمتها لهم . بل كانوا يتجاوزونها أحياناً إلى أعمال قاسية يبرأ منها الإسلام ، وقد نهى عنها الشارع عليه الصلاة والسلام .

ومهما كان من معنى كلمة (الجهاد) فإن المسلمين اليوم يرون وجوب العمل بقوانين الحرب المتفق عليها بين الأمم المتعدنة مادامت موافقة في روحها

واعتدالها لما قرّره الإسلام وحضّ عليه الشارع : فمما اتفقا عليه مطالبة المحارب
المُدافع عن وطنه بالصبر والاجتهاد في نيل النصر. ومن الآيات في ذلك
قوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ
مَّرْصُومٌ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ﴾

و (المرابطة) و (الرباط) الإقامة في وجه العدو على الثغور، وفي
جبهات الحرب

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

وقوله (ولا تلقوا) أي لا تبخلوا بالمال وتدعوا إنفاقه في إعداد ما يلزم
للدفاع لأنّ المال كما يقولون عَصَبُ الحرب ، ومن خاض غمارها واصطلى نارها
قبل أن يُهدّد ما يلزم لها كانت عاقبته الفشل ، ومصير جنده الى التهلكة ، كما
صرّحت به الآية ، وكما قال نابليون وقد سُئل عما يلزم من الوسائل للفوز في
الحرب فقال : المال ثم المال . ثم المال .

أما الأحاديثُ في هذا المعنى فمنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلِّ السُّيُوفِ﴾

﴿السُّيُوفُ مَفَاتِيحُ الْجَنَّةِ﴾

والمعنى في الحديثين أنّ السعادة إنما تُنتظر للمحاربين من طريق الصبر
والثبات في الدفاع .

﴿رِبَاطُ شَهْرٍ ، خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ دَهْرٍ﴾

﴿عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ أَبَدًا : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَعَيْنٌ
بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾
﴿كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا إِذَا مَاتَ مُرَابِّطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ
يَنُمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

يعنى أن كل عمل بر وخير يأتي به الانسان ينتقط بعد موته الامرابطة
فى الحدود : فإن ثوابها فى استمرار ونمو كما إذا كان صاحبها حياً إلى يوم
القيامة .

ومما يُطالب به الوطنى المحاربُ التدرُّبُ على أعمال الحرب والتَّمَرُّنُ على
استعمال أدواتها المختلفة ، وفي الحَضِّ على ذلك ورد قوله صلى الله عليه وآله وسلم :
﴿عَلِّمُوا بَنِيكُمْ الرَّمْيَ : فَإِنَّهُ نِكَايَةُ الْعَدُوِّ﴾
﴿أَحَبُّ إِلَهُوٍ إِلَى اللَّهِ إِجْرَاءُ الْخَيْلِ وَالرَّمْيُ﴾

يعنى أنه تعالى لا يحب أن يُضيع الانسان وقتاً من عمره فى اللهو والبطالة
واللعب . اللهم إلا لعباً يكون من ورائه تمرُّن وتدرُّب على الحرب : كإجراء
الخيـل تعلماً للفروسية وكالرمي أي رمي التِّبَالِ : وهو التمرن على إصابه الهدف .
وخصَّ هذا النوع من فنون الحرب بالذكر لأن عليه العُمدة فى حروب ذلك
الزَّمن حتى ورد أنه صلى الله عليه وآله وسلم فسَّر القوة فى قوله تعالى :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾
بقوله ﴿أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ
الرَّمْيُ﴾

أما وقد قام مقام الرمي بالنبال اليوم الرمي بالرصاص والقذائف المختلفة
فقد أصبح التمرن عليها والمهارة فى استعمالها هو الواجب . وكذلك إجراء الخيل :

فإنه في وقتهم كان من أكبر وسائل الدفاع والظفر على العدو ولذلك أكثر الشارع من الحوض على تربية الخيل والعناية بها وحسن القيام عليها . من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَا مِنْ رَجُلٍ يُنْقِي لِفَرَسِهِ شَعِيرًا ثُمَّ يَعْلِفُهُ عَلَيْهِ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ حَبَّةٍ حَسَنَةً ﴾

﴿ الْخَيْلُ مَعْقُودَةٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ : الْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ . وَإِنَّ الْمُنْفِقَ عَلَيْهَا كَالْبَاسِطِ يَدَهُ فِي الصَّدَقَةِ ﴾

أما اليوم فقد شارك الخيل في وجوب العناية والاهتمام ما اخترعه الغربيون من وسائل الركوب والنقل والطيران في البر والبحر والهواء ، وهي كثيرة قد يتفق للمرء أن يُطلَّ من نافذة بيته صباحاً فيعدُّ منها بضعة عشر مختلفة باختلاف الأشكال والأطوار والأغراض ، وكلُّها من القوة المأمورة بها شرعاً في التوصل إلى الغلبة والظفر ، وإن الحرب الأخيرة قد اثبتت ذلك بما لم يبق معه ريب لمُرتاب .

ومما يُنتفع به في الحروب ونيل الظفر فيها (الخدعة) والإيهام بشرط أن لا يشوب ذلك شائبة غدر أو خيانة . وقد قال صلى الله عليه وسلم لخديفة بن اليمان لما اشتد الحصار على المسلمين يوم الخندق وكثر الخوف والدُّعْرُ :

﴿ خَذَلْنَا عَنْنَا : فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ ﴾

و (التخذيل) وقريب منه (التثييط) هو أن يقول للمحاربين قولاً يكون من أثره الخذلان في نفوسهم والوهن في عزائمهم ، فينكصون عن القتال ، وهذا ضربٌ من ضروب الدعاية التي يسمونها (بروباغنده) وعليها يتوقف نجاح كل عملٍ في هذه الأيام تقريباً

وورد أنه كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد غزوة ورى بغيرها .
أي إنه كان يخفي عن الناس جهة قصده في الحرب خشية العيون والجواسيس .
فكان يُورّي أي يتكلم كلاماً يُوهم به غير ما يُريد . ومنه (التورية) في علم
البدیع فانظر مقدار تنزهه صلى الله عليه وسلم عن الكذب حتى في مثل
هذا الموطن .

أما الرواتب والتعيينات التي يأخذها الضباط والجنود المحاربون فإنهم أحق
بها وأهلها . ومع هذا فإن الشارع غبطهم عليها وقال عنها : إنها نعمة فوق نعمة .
أو هي لذة مقرونة بلذة أخرى . ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :
﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يَفْزُونَ وَيَأْخُذُونَ الْجُعْلَ يَتَقَوَّوْنَ بِهِ عَلَى الْعَدُوِّ كَمَثَلِ
أُمِّ مُوسَى : تَرْضَع وَلَدَهَا وَتَأْخُذُ أَجْرَهَا ﴾

يُريد صلى الله عليه وآله وسلم أن عمل المحاربين في الدفاع عن وطنهم له
في نفوسهم لذة الشعور بعمل الواجب فإذا انضم إلى ذلك طمأنينة نفوسهم
ورضاها بما يُعطون من راتب وجائزة ، أو يقلدون من رتبة أو وسام مثلاً
أصبح اغتباطهم إذ ذاك مزدوجاً ، ولذتهم مضاعفة . وتكون حالتهم قد اشبهت
حالة أم موسى الكلبي التي كانت تلد بارضاع فلذة كبدتها ، وتلذذ في الوقت
نفسه بأخذها أجرة إرضاعه من خزينة عدوهم (فرعون) وكثيراً من أعمال
الشر ما كان عقابه فيه ، ومثلها أعمال الخير فإن كثيراً منها ما يكون ثوابه فيه
كالمحارب وأم موسى اللذين ذكرهما الحديث الشريف

